



مقدمة:

فيما كان المبعوث الأممي الخاص إلى سوريا ستيفان دي مستورا يجول في عواصم الأطراف الفاعلة في الأزمة السورية؛ سعياً وراء دعم يساعد على تحقيق تقدم في الجولة المقبلة من مفاوضات جنيف التي تنطلق هذا الأسبوع، بدأت تطفو على السطح ملامح تفاهم أمريكي- روسي جرى التوصل إليه، كما يبدو، خلال زيارة وزير الخارجية الأميركي جون كيري إلى موسكو أواخر شهر آذار/ مارس الماضي.

ويبدو من المعطيات المتوفرة أنَّ الجانب الأميركي بات أكثر استعداداً للقبول بال موقف الروسي الداعي إلى تجنب تناول موضوع بشار الأسد عند بحث المرحلة الانتقالية والتركيز في تغيير الدستور، بما في ذلك صلاحيات الرئيس، وترك مصير الأسد للانتخابات. وهذا يعني عَدَّ الأسد جزءاً من المرحلة الانتقالية، وأنَّ له أن يرشح نفسه للانتخابات الرئاسية المزمع إجراؤها خلال ثمانية عشر شهراً من بدء العملية السياسية، مادام "الشعب السوري سيقرر مصيره"; وذلك في مقابل نزع سلطاته وتحوله إلى رئيس بصلاحيات بروتوكولية. وتُعزز هذا الاعتقاد جملةً من المؤشرات أبرزها تصريح الناطق باسم الخارجية الأمريكية مارك تونر، في 2 نيسان/ أبريل 2016؛ إذ قال إنَّ الولايات المتحدة تتفق مع روسيا في أنَّ "مصير الرئيس السوري بشار الأسد، يجب أن يقرره السوريون أنفسهم" [1]. وهي اللازمة التي ما فتئت روسيا تكررها منذ بداية الأزمة، والتي تعني بها تمسكها ببقاء الأسد خلال المرحلة الانتقالية.

والسؤال الذي يبرز هنا هو: هل من الممكن أن يبقى الأسد من دون صلاحيات؟ وهل يمكن حصول مرحلة انتقالية بوجوده وجود الأجهزة الأمنية والجيش معه كذلك؟

اتفاق كبير - بوتين

على الرغم من نفي الجانب الروسي أن تكون محادثات كيري في موسكو قد تطرقـت إلى مصير الرئيس الأسد أو إلى ترتيبات المرحلة الانتقالية، مع اقتراب موعد استئناف مفاوضات جنيف، فإنه بدا واضحاً أنَّ التركيز بعد الاتفاق في تثبيـت الهدنة والاستمرار على تسديد الضربـات لتنظيم الدولة كان منصباً على مصير الأسد الذي تذرع الروس بأنَّ إزاحته ستكون صعبـة بسبب معارضـة إيران واحتمال تفكـك النظام بـرحـيله [2].

وفي وقت غدا فيه الجانب الأميركي أقلَّ تشبـتاً بمطلب رحـيل الأسد خلال المرحلة الانتقالية، مع استمرار تمسـك موسـكو

وطهران به، اقترح الروس أن يتم الإبقاء على الأسد، وحتى السماح له بالترشح للانتخابات المزمع إجراؤها في نهاية المرحلة الانتقالية، في مقابل تعديل الدستور وتحويل نظام الحكم في سوريا من النظام الرئاسي المعهود به حالياً إلى النظام البرلماني، على نحوٍ يصبح فيه الرئيس منتخبًا من البرلمان بدلاً من الشعب ويتمتع بصلاحيات بروتوكولية، في حين تحصل الحكومة التي سيجري تشكيلها على السلطات الحالية التي يحظى بها رئيس الجمهورية، بما في ذلك سيطرتها على الجيش والأمن. ويبدو أنَّ الروس والأميركيين اتفقا على أن يكون التركيز خلال المرحلة المقبلة في تعديل الدستور أو إعادة كتابته بدلاً من التركيز في موضوع الحكم/الحكومة الانتقالية والبحث في مستقبل الأسد، وأن يتم الانتهاء من ذلك في موعد أقصاه أربعة أشهر، أو كما قال كيري إنَّ الدستور الجديد يجب أن يكون جاهزاً بحلول شهر آب/أغسطس المقبل[3].

المشكلة في هذا الطرح الذي اقترحه الروس خلال زيارة كيري لموسكو، والذي باشر الأميركيون الترويج له في عواصم عربية وإقليمية عديدة، بدعم من دول عربية مهتمة بعدم تحقيق الثورة السورية أدنى أهدافها؛ بما في ذلك إزاحة الأسد، أنَّ أي حكومة في سوريا – مهما كان عنوانها أو اسمها أو تشكيلتها أو صلاحياتها – لن تستطيع أن تمارس مهماتها مادام الأسد موجوداً، حتى لو كان ذلك بصفة رمزية في الحكم أو داخل سوريا؛ لأنَّ سيطرته على الجيش والأجهزة الأمنية ليست سيطرة قانونية أو دستورية تتأتي من كونه رئيساً للجمهورية وقائداً عاماً للجيش والقوات المسلحة فحسب، بل لأنها تتعدي ذلك إلى السيطرة الفعلية. فالجيش الذي قاتل شعبه والأجهزة الأمنية التي أذاقته ألوان العذاب هي من صُنِعَ يد نظام الأسد وبرعايته على امتداد نصف قرن. ومن ثم، فهي تأتُّر بأمره، ويصعب تصور تلقّيها أوامر من غيره في ظل وجوده واستمراره.

وتعُد حالة الرئيس اليمني السابق علي عبد الله صالح مثلاً واضحاً دالاً على طبيعة العلاقة الزائنة والولاءات الشخصية التي تربط الرئيس أو الزعيم بالأجهزة الأمنية والعسكرية في النظم الاستبدادية. فالرئيس صالح غادر السلطة كلياً بموجب المبادرة الخليجية، وتخلَّ عن صلاحياته لتابعه الذي غالباً رئيساً مؤقتاً، لكن قسماً كبيراً من الجيش والقوى الأمنية المختلفة ما زال يدين له بالولاء الكامل ويقاتل تحت رايته، على الرغم من أنه لم يُعد، قانونياً ودستورياً، رئيساً له.

وإذا كانت هذه حال صالح، فكيف يكون الأمر بالنسبة إلى الأسد في حال بقائه في السلطة وإن كان منزوع الصلاحيات. إنَّ أيَّ تغيير في الدستور في ظل وجود الديكتاتور هو "تغيير على الورق"؛ لأنَّ سلطة الديكتاتور لا تتبع من الورق أو الصياغات أو حتى من الدستور نفسه.

وفوق ذلك، جرت العادة أن يكون شخص الرئيس البروتوكولي (الشرفي) رمزاً لوحدة الوطن والشعب، وأن تتأتي رمزيته من إنجازات أدائها لوطنه الذي يفخر به ويوكِّل إليه مهمة تمثيله. فهل يمكن أن يكون الأسد رمزاً لوحدة سوريا؟ إنَّ القول بإمكان ذلك يكون في حال عَدَّ كلَّ من الروس والأميركيين أنَّ سقوط أكثر من مليون سوري بين قتيل وجريح ومقهود، وتشريد نصف السوريين، وتدمیر البنية التحتية للبلد وتحويلها إلى ساحة تعیث فيها كلَّ ميلشيات الأرض فساداً، إنجازات يستحقُّ الأسد أنْ يُكَافِأَ عليها بمنصب "رئيس شرفي".

"داعش" يسيطر على عقل إدارة أوباما:

يبدو واضحاً أنَّ فكرة القضاء على تنظيم الدولة تکاد تستحوذ استحواذاً مطلقاً على تفكير إدارة الرئيس أوباما واهتمامها بما يجري في سوريا وعموم الإقليم[4]. ومن ثم، فهي ترى أنَّ كلَّ القضايا الأخرى لا تدعو أن تكون تفاصيل غير ذات شأن؛ ما يعني، وفق منطق واشنطن، أنَّ على جميع القوى المحلية والإقليمية والدولية المنخرطة في الصراع السوري تتحية خلافاتها "الصغريرة" جانباً والتركيز في الهدف الرئيس المتمثل بهزيمة التنظيم وحرمانه من أيَّ ملاذ آمن في المنطقة.

من هذا الباب، وعلى الرغم من امتعاضها الناجم عن وقع المفاجأة، وجدت الولايات المتحدة في التدخل العسكري الروسي في سوريا فرصةً للدفع في اتجاه ضمّ موسكو إلى جهود حربها ضد تنظيم الدولة؛ إذ رأت أنَّ التدخل الروسي في سوريا يمكن أن يكون مفيداً في حال استهدافه لتنظيم الدولة، وهو أمر ما فتنَّ يُرددَه مسؤولو إدارة أوباما من جهة أنهم يريدون من روسيا أن تكتفَّ عن استهداف فصائل المعارضة السورية وأن تتركَّ بدلاً من ذلك في ضرب داعش.

وفي سبيل إقناعها بتبديل مقاربتها في اتجاه القضاء على تنظيم الدولة، بدلاً من استهداف المعارضة السورية، كانت واشنطن مستعدةً للذهاب مع موسكو إلى أبعد حدّ ممكن، بما في ذلك القبول ببعض عناصر الموقف الروسي بشأن مصير بشار الأسد. ومن هذا المنطلق، وافقت واشنطن على الانخراط في المسار السياسي الذي اقترحه موسكو بالتوازي مع تدخلها العسكري في سوريا. فشاركت في مسيرة فيينا التي بدأت رباعية (روسيا - الولايات المتحدة - تركيا - السعودية) قبل أن توسع لتشمل 17 دولةً، من ضمنها إيران، في إطار ما أصبح يُعرف بـ"مجموعة دعم سوريا"، لتعود بعد ذلك وتتصبح ثنائيةً في ظل توجّه موسكو وواشنطن نحو التوصل إلى تفاهمات مشتركة بينهما حول الأزمة السورية.

أسفر مسار فيينا عن التوصل إلى اتفاقٍ روسي - أمريكي في المبدأ عُرف بـ"اتفاق فيينا" وذلك في 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 2015، وقدّم خريطة طريق لحلّ الأزمة السورية جرى تضمينها في قرارٍ لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، حمل الرقم 2254 بتاريخ 18 كانون الأول/ ديسمبر 2015، ونصّ على وقف إطلاق النار، وتشكيل حكومة شاملة ذات طابع غير طائفي، وتعديل الدستور، وإجراء انتخابات خلال 18 شهراً تحت إشراف الأمم المتحدة. وبعد إخفاق الجولة الأولى من مفاوضات "جينيف 3" التي انطلقت في 29 كانون الثاني/ يناير 2016، بسبب استمرار القصف الروسي ومحاولة النظام وحلفائه استثمار المفاوضات غطاءً لتحقيق نتائج على الأرض، تمكّن الروس والأميركيون في 11 شباط/ فبراير 2016 من التوصل إلى اتفاقٍ لوقف "العمليات العدائية" في سوريا على هامش مؤتمر ميونخ للأمن، بدأ تنفيذه في 27 شباط/ فبراير 2016 بعد تذليل آخر العقبات أمامه خلال اتصال هاتفي بين الرئيسين بوتين وأوباما في 22 شباط/ فبراير 2016.

وعلى الرغم من الخروقات الكبيرة، وخصوصاً في الفترة الأخيرة، فإنَّ الروس والأميركيين ظلّوا متمسكين باتفاق وقف إطلاق النار، بل إنَّ الأميركيين صاروا يصرّون على هذا الاتفاق أكثر من أيّ وقت مضى، بعد أن تبيّنت لهم فوائد إستراتيجيتهم الخاصة بالقضاء على داعش، وذلك على الرغم من معارضة النظام السوري الذي أراد، مع حصوله على شحنة قوةً بعد التدخل الروسي، أن يواصل القتال، كما قال رئيسه، حتى يستعيد كلَّ الأراضي التي فقدها، وعلى الرغم من تحفّظ المعارضة التي وجدت أنَّ وقف العمليات القتالية قبل انطلاق المرحلة الانتقالية يُضعف موقفها ويفقدها أدوات الضغط التي يمكن أن تدفع النظام لتقديم تنازلات.

تمثّل موقف الولايات المتحدة من الهدنة بأنها تفسح المجال أمام وقف القتال بين النظام والمعارضة وتوجّه جهد الطرفين نحو القضاء على تنظيم الدولة، وذلك بمعزل عن المسار السياسي وعن إمكان تحقيق تقدّم في مفاوضات جنيف لحلّ الأزمة السورية. خلال الأسابيع الستة الماضية من الهدنة تمكّنت قوات النظام التي سعت مع حلفائها لتحقيق انتصارات ذات قيمة معنوية تساعده على تأهيل رأس النظام السوري وتحويله من قاتلٍ لشعبه إلى خصمٍ عنيد لتنظيم الدولة وحليف في إطار الحرب على هذا التنظيم لاجتثاثه، من نقل جزء كبير من قواتها من الجبهات التي كانت تواجه فيها المعارضة المسلحة، والحدّ لاستعادة مدينة تدمر ذات الأهمية التاريخية والحضارية الكبيرة، كما تمكّنت قوات النظام من استعادة مدينة القرىتين التي تقع على مسافة تبعد نحو 85 كيلومتراً في اتجاه الجنوب الشرقي من مدينة حمص.

وقد شكّلت استعادة المدينتين ضربةً كبيرةً لتنظيم الدولة لاحتواهما ثروات باطنيةً مهمّةً، فضلاً عن أنهما تشكلان معبراً

مهماً بين معاقل التنظيم في شرق سوريا (دير الزور) وشمالها الشرقي (الرقة) من جهة وقواعده في منطقة القلمون جنوب غرب البلاد من جهة أخرى. أما قوات المعارضة، فقد تمكنت - بدعم تركي - من إلحاق بعض الهزائم بتنظيم الدولة في شمال شرق حلب؛ إذ استعادت قرية الراعي الإستراتيجية على الحدود مع تركيا إلى جانب قرًى أخرى، قبل أن تفقدتها مرةً أخرى. وفي الوقت نفسه كانت فصائل المعارضة في الجنوب تخوض معارك طاحنةً ضدّ فصيلين صغيرين قريبيين من تنظيم الدولة في المناطق الواقعة بين درعا والقنيطرة؛ مما لواء شهداء اليرموك وحركة المثنى الإسلامية.

وهكذا بدت الإستراتيجية الأميركيّة كأنها تُحقق نتائج إيجابية على الأرض في ضوء توقف القوات الجوية الروسية عن استهداف فصائل المعارضة المسلحة، وتركيز أكثر لقوات النظام في مواجهة تنظيم الدولة. وقد دعت هذه النتائج كيري لزيارة موسكو للمرة الثانية خلال شهر لتثبيت الهدنة المُهشة بين النظام والمعارضة.

خلاصة:

ليس من الممكن تخيل الأسد، أو أيّ دكتاتور آخر يسيطر بالقوة والولاءات غير الوطنية على أنواعها، رئيساً فخرياً بلا صلاحيات، كما أنه يصعب تحريك المرحلة الانتقالية إلى الأمام مادام يحتفظ بصلاحياته؛ ذلك أنَّ هذا الأمر يقتضي مغادرته. هذا فضلاً عن القضية الأخلاقية المتعلقة بالجرائم ضدّ الإنسانية وجرائم الإبادة الجماعية التي ارتكبها ونظامه.

لا حلٌّ سياسياً في سوريا ولا استقرار فيها مادام يشار الأسد موجوداً في الحكم بأيّ صيغة كانت؛ لأنَّ بقاءه واستمراره يعنيان أنَّ سبب الأزمة ما زال موجوداً، ومن ثمَّ سيد السوريون مبرراً قوياً لمواصلة القتال حتى يغيب الأسد أو يجري تعوييه، ولا شكَّ في أنَّ استمرار الأزمة واستمرار الاقتتال بين السوريين يعنيان أنَّ تنظيم الدولة (أو ما يشبهه) لن يجد متسعًا للبقاء فحسب، بل للتمدد أيضًا.

[1] "الخارجية الأمريكية: مصير الأسد يقرره السوريون"، سبوتنيك نيوز، 5/4/2016، في:
<http://bit.ly/1V0x8Gc>

[2] "بوتين لا يرى بدليلاً من الأسد... وقلق من طلب دعم إيران"، الحياة، 2/4/2016، في:
<http://bit.ly/1SyEn1s>

[3] "اتفاق أمريكي روسي يدعوا لمسودة دستور سوري بحلول آب/أغسطس"، بي بي سي عربي، 25/3/2016، في:
<http://bbc.in/1Mttbau>

Press Briefing by Press Secretary Josh Earnest," The White House, Office of the Press Secretary, 17/10/2014, at: [4]
<http://1.usa.gov/23DzIu5>

المصادر: